تاريخ الارسال:2019/03/07 تاريخ النشر : جوان 2019

الأنوثة بعيون عوجاء: عودة ليليت أم تقديس للأسطورة؟

Femininity with lame eyes : The return of Lilith or the sanctification of myth?

ط/د. سوسن ابرادشة

salasilobrad@gmail.com

جامعة الجزائر 02

الملخص بالعربية:

عند الغوص في بعض الأعمال السردية الروائية العربية النسوية، يلحظ القارئ رفض الكاتبة العربية لأنوثتها وتملصها منها، أو ربمًا يلمسُ حرجَها من صفات الأنوثة اللصيقة بها، وهو ما يترجمُ تمردها على مهام المرأة ودورها في الحياة الطبيعية العادية، فنجدُ أنَّ رفضها وصراعاتها اللامنتهية مع الآخر ومع الدين والمجتمع والعادات، نابعة من رفضها لأنوثتها، وهو ما يجعلها دائمة التمرد والعصيان؛ فإلى أيّ حدٍ استطاعت الكاتبة العربية نكران طبيعتها الأصلية؟ بل وكيف جسدت ذلك النكران في أعمالها السردية، حتى شكّلت ألواحًا فنية وصورًا إبداعية تروي تفاصيل الجانب المظلم من حياة الأنثى المتمردة؟

الكلمات المفتاح: الأنوثة ؛ أسطورة ليليت ؛ الرفض ؛ الذكورة ؛ السرد.

Abstract

When diving in some of the narrative works of Arab feminist novel, the reader notices the rejection of the Arab writer to femininity or evade them, or may touch the embarrassment of the qualities of femininity close to them,Which translates its rebellion against the functions of women and their role in normal life, we find that their rejection and endless conflicts with the other and with religion and society and customs, stems from the rejection of femininity, which makes them permanent rebellion and disobedience, To what extent did the Arab writer deny her original nature? And even how it embodied this denial in its narrative work, until it formed artistic objects and creative images detailing the dark side of the rebellious female life?

Keywords: Femininity; Legend of Lilith; Refusal; Narration; The masculinity

توطئة:

ظلّ التاريخُ يجسدّ ُكل الأحداث التي مرّت بها البشرية في كل العصور وعلى مرّ الأزمنة، حيث راح يحكي لكل جيل عادات وتقاليد الأجيال التي تعاقبت عليه، وكان الكثير منها مرتبطا بالحلال والحرام الذي سيَّر شؤون الحضارات وحددَّ نهاياتها في كثير من المرات؛ كان هذا بعد أن سادت بعض المعتقدات البدائية، والخرافات البائسة، والأساطير المزيفة عقل الإنسان لعصور طويلة، لتأتي بعدها الأديان السماوية التي شرّعت الحلال والحرام، وحدّدت مفاهيم عديدة ارتفعت بالإنسان من مستوى الخرافات والحياة القبلية إلى مستوى إنساني كريم؛ ورغم ما حدث بعد ذلك من تطورات مسّت مجالات عديدة، بقيِّ نوع من الانفصال المعرفي في كيفية التواصل وطريقة الانسجام في عالمنا العربي بين الرجل والمرأة، وكان يجب أن يتجاوز كلا منهما هذه القطيعة وأن يتخطوا هذا الانفصال، من خلال اطلّاع المرأة وخوضها في كل الحقول المعرفية التي كانت غامضة بالنسبة لها؛ وربما كان أصل وأساس هذه القطيعة كما تدّعي معظم الكاتبات، راجعا إلى ثوابت عديدة أسّست حياتنا وحدّدها بشكل صارم، فإمّا أن يكون الدين الذي تربينا تحت أطرّه ورضخنا في عديد المرات لأحكامه وقراراته هو السبب، وإما أن تكون العادات والتقاليد التي سادت معتقداها أخيلة الأجيال.

وكما نعلم جميعا فإنَّ "لكل المجتمعات الديمقراطية ثوابت ينبني عليها العقد الاجتماعي؛ منها احترام القوانين ومبدأ انفصال السلطات، ناهيك عن مبادئ المساواة والعدل والحرية، وإذا كانت هذه الثوابت لا يُتَحدث عنها كثيرا، فلأنّها ليست من صنف الثوابت الجامدة، التي تعطل تَقدُّمَ المجتمع وتحرّر الأفراد، وتسمم حياة الشعوب، أما ثوابتنا نحن فهي ما يبرر اللامساواة واللا عدالة واللا حرية، بل وما يسوغ الإرهاب والعنف، إنّها بمثابة مقدسات تلهج بها مجتمعاتنا العربية فتجعلها حجر عثرة أمام رغبة في التغيير والإصلاح الحقيقي...". [1]

وهذا لا يعني أبدا أنَّ الثقافة الإسلامية العربية (غير الصحيحة) هي الثقافة الوحيدة التي حولت المرأة إلى سلعة أو عبدة ؛ ذلك أنَّ " الثقافة الغربية، المسيحية أيضا فعلت ذلك؛ بل إنَّ قهرها للمرأة كان أفدح وأشد" [2]

لكن في الفترة الأخيرة تغيرت وجهات النظر واختلف الأمر تماما، حيث ضعفت قدسية هذه الثوابت خاصة بالنسبة لنظرة المرأة لها، إذ استطاعت بجرأتها أن تخوض عوالم هذه المواضيع، بل وقد لجأت إلى نقدها أيضاً، فكان نقدها إما من باب الاستهزاء أو من باب استفزاز القراء والمستمعين، أو لغايات أخرى.

وكان لها أيضا نصيب في أن تحكي التاريخ، وتحددّ معالمه أو تغيره إلى الأبد، فهي من صارعت لأجل البقاء وهي أيضا من صارعت من أجل الزعامة، وصولا إلى عصرنا الحديث والذي حملت فيه المرأة شعار: "الصراع من أجل إثبات الذات"، وربما سعّت إلى أكثر ممَّا يحمله هذا الشعار من معانٍ، حيث راحت تعبر عن كينونتها ووجودها بشتى الطرق والوسائل من خلال كتاباتها خاصة، فكتبت بألم عن وضعها، ووصفت بشدّة تسيّد الرجل وتسلّطه عليها، وأبدّعت في تناولها مواضيع الحياة وتعبيرها عن أهم القضايا الإنسانية، ليست التي تخصّها فقط بل أكثر من ذلك، فكان لا بد للرجل أن يعترف بها، وأن يهتم أكثر بكتاباتها الإبداعية، خاصةً وهي المرأة التي احتوت مضامين أعمالها الممنوع، الذي لم يسمح لها الرجل الخوض فيه ولا اختراقه.

ولأن حضارتنا كمسلمين عرب تفرضُ علينا أن نلتزم الكثير من الحدود عند خوض بعض الأمور، فإنَّ المرأة الكاتبة في مجتمعاتنا رسمت حدودا معينة لنفسها على هامش كل تلك الأمور، وأعطت لكتاباتها شكلا مميزاً يجعلها تتحرر بعض

الشيء من قيود الدين ورجاله، ومن سلطة المجتمع وقوانينه الجائرة، ومن وهم الجنس وغواياته، ورفضت كل تلك الخطوط العريضة التي ألزّمها إياها الرجل.

وعلى سبيل المثال فإنَّ الكاتبة الجزائرية فضيلة الفاروق تعدّ أنموذجا جيداً للتعريف بكتابات المرأة التي تحكي الممنوع بعمق، وتسهب في رفض ما هو سائد وموجود خاصة ما تعلق بإشكالية الأنوثة وبكيان المرأة ووجودها، فعلى أي أساس بنّت الكاتبة منطلقات خطابها الرافض ؟ وهل جاز لها أن تحطمَ التابع المتأصل فينا لتتماشى وما هو حداثي بالنسبة لها ؟ بل وكيف كرست هذه الروائية الخطاب السردي الروائي كآلية من آليات الرفض والتمرد على كل ما هو سائد ومعتاد، وهي المرأة الثائرة على المعتاد والسائد؟

كل هذه الأسئلة سنحاول مناقشتها من خلال طرحنا لقضية مهمة في كتابات فضيلة الفاورق، ألّا وهي: الأنوثة المرفوضة، والتي صورّتها الروائية بطرق مختلفة، وربما بعيدة كليا عن المفاهيم النمطية والمعتادة.

المرأة والأنوثة / أسطورة ليليت :

على مرّ العصور كانت هناك نساء عديدات ترفضنّ واقعهنّ المرّ والأليم على حدّ قول كل رافضة لأنوثتها، ودائما نبحث عن سبب ذلك: أ لأنّ هناك إحساس بالضعف والانتماء للفئة المغلوب عليها، وبروز دلالات ذلك (مظاهر الأنوثة)؟ في مقابل اختفاء الإحساس بالذكورة، وبكل ما تحمله هذه الصفة من خصائص تجعل أصحابها في الفئة الغالبة، أم لأنها عقدة ليليت؟

جميعنا نسمع عن عقدة أوديب؛ لكن نادرا ما نسمع عن عقدة ليليت، العقدة الأنثوية التي تعني الرفض المطلق للأنوثة، لكن ليس من طرف حواء وإنما من طرف ليليت نفسها.

اعتبر علماء النفس والاجتماع والباحثين في شخصية الأنثى وتقلبات مزاجها السريعة، أنّ ليليت هي الجانب المظلم من الأنوثة فيما تضيء حواء ما تبقى من الأنوثة؛ فقد "قسمت صورة الأنثى ومنذ عشرات الآلاف من السنين إلى حواء ولیلیت، فكانت حواء ترمز إلى المرأة المضحية وإلى الأمومة، ولخضوع المرأة والسلبية الجنسية وللزواج الأحادي، وللمطبخ والعبادة وتربية الأولاد وخدمتهم، وهو في الواقع جانب واحد فقط من الأنوثة. أما الجانب الآخر فتمثله ليليت التي ترمز إلى المساواة والفاعلية الجنسية، ورفض الإنجاب أو الأمومة والتمرد عمّا تقوم به حواء من أعمال جعلتها واجبات."[3] ومادامت حواء توحي بأعمالها تلك أنّها الأنثى القديسة، فإن ليليت[4] من دون شك هي الأنثى المتمردة على مكانتها، ووضعها، وحقوقها، وعلى واجباتها بل يمكن القول أنها الأنثى الرافضة لأنوثتها، كما هو الحال بالنسبة لكتابات فضيلة الفاروق، حيث أنَّ رفضها للأنوثة صار أمراً مكشوفا لا تقوى على ستره، ذلك أنّها ترى في أنوثتها العائق الأكبر، الذي يحول بينها وبين تحقيق أحلامها وبلوغ آمالها وتطلعاتها، "فما أتعس أن يكون الفرد امرأة عندنا ؟ فكل طموحاته تتوقف عند عتبة تاء التأنيث "[5]، والمعروف أنَّ التعاسة هي الحزن، والإحساس بالضعف والظلم والسيطرة من طرف شخص ما، دون أن تحرك ساكناً للدفاع عن نفسك أو عن حقوقك المُستَولَى عليها، فكل هذه الأحاسيس تشكلها الأنوثة بل وأكثر من ذلك فهي تحرم الأنثى من تحقيق طموحاتها ومن الحياة بشكل يرضيها !!.

وبعد محاولاتها العديدة في كسب ثقتها بنفسها وتقبلها أنوثتها، تتعب لفشلها في ذلك. وهو ما يجعلها تحاول التغيير من أنثى إلى شكل آخر، لا هو أنثى ولا هو ذكر تقول: " لم أكن فتاة مسالمة في الحقيقة، كانت رغبتي الأولى أن أصبح صبيا

وقد آلمني فشلي في إقناع الله برغبتي تلك، ولهذا تحولت إلى كائن لا هو أنثى ولا هو ذكر. لا هوية لي غير الغضب الذي يملأني تجاه العالم بأكمله، وحين بلغت سن البلوغ أصبت بالنكسة الحقيقية "[6]

فمعنى أن يتمنى إنسان أن يتحول جنسه إلى الجنس الآخر، وهو لم يتعد الثالثة عشر من عمره هو أمرٌ خطير، يؤكدُّ أنّه تعب من الدور الذي لعبه في سنوات عمره القليلة التي لم يع في أكثر من نصفها إلا القليل، ومعنى أن يطلب ذلك من الله على شاكلة دعاء مستمر، وانتظاره حدوث المفاجأة وتغيُّرَ جنسه بين ليلة وضحاها هو أمر أخطرٌ من الأول؛ لذلك لم تكن فتاة مسالمة ولن تكون، ولأنّ الاختناق يؤدي إلى الانفجار، فإنَّ تمردها هو ردّة فعل طبيعية ومحتملة جدا، وهي ستكون الأنثى الصبي أو البنت الولد، تضيف قائلة:

" كنت الصبي ذا الضفائر الطويلة، والقدمين المتسختين، والفستان الذي يتمزق لسبب ما، والحلق الذي يضيع في الجزارين وفي سوق العصر... كنت صبيا مشوها يخلق عالمه الخاص في أزقة قسنطينة القديمة، تلك الأزقة الحجرية الضيقة التي تفرح برائحة عقاقير العطارة، تلك الأزقة، أزقتي أنا والتي كانت تشكل جزءا من انطوائي ورفضي المطلق لمنطق الطبيعة" [7]

هكذا إذا تكون حالة البنت الرافضة لوضعها، هي نفسها أشبه بحالة ولدٍ، أو بالأحرى حالة فتاة تصارع من أجل أن تكون ولدا؛ فهي الصبيُ بمظاهر الفتاة، بضفائره الطويلة، بفستانه الذي يتمنى أن يتمزق، ولأجل أن يحدث ذلك تفعل المستحيل ولا يهمها السبب أبدًا، وبحلقه الذي لا يهمها أيضا أن يضيع أو أن يبقى في أذنها، في أذن هذه الفتاة الصبي، فالضفائر والفستان والحلق أمور تميّز الأنثى عن الذكر، وكل هذه المظاهر كانت تحملها، لكن بشكل يجعلها مختلفة تماماً عن صورة البنت، وأقرب إلى صورة الصبي، فكانت الصبي المشوه أو الأنثى العوجاء. وتحلّ الكارثة بالنسبة لها حين يلوح شبح اكتمال الأنوثة، فتتبعثر الأحلام ويختفي كل ما هو ممتع وجميل في الوجود. تقول: " في الثالثة عشر تماما، اكتشفت أنَّ أحلامي تتعثر ببروز نهدين صغيرين لي، بوجعٍ يتكور ويتكرر ويصنع مهانتي بإتقان" [8] ، في الثالثة عشر إذًا يحدث كل ذلك، والثالثة عشر هو سن البلوغ عند الفتاة ولكنّه ليس بالسن الأكيد لأن "البلوغ إن لم يكن في الثانية عشر عند الفتاة كان في الرابعة عشر أو بعد ذلك بسنة أو سنتين أو ثلاث سنوات على الأكثر، ونادرا ما يكون في الثالثة عشر لأن جسم الفتاة يكون قد فوتَّ المرحلة تلك، ومن ثَمَ يتأخر البلوغ بعدها بسنة على الأقل، فنادرًا ما يكون البلوغ في الثالثة عشر إلا في الحالات القليلة النادرة " [9]، ولكنها قصدت سن الثالثة عشر لما يحمله هذا الرقم من دلالة سيئة حسب الأساطير والخرافات، ولأنّه رقم يدل على النحس ودائما ما يكون فالًا سيئًا ورمزًا للتشاؤم والمصاعب، ومن ثَمَ يكون للبلوغ نفس دلالة هذا الرقم.

فسنة الثالثة عشر هي سنة المصاعب، وكل ما يحدث فيها يكون بالضرورة أمر سيئ، فمعنى البلوغ هو اكتمال الأنوثة، ومعه اكتمال التعاسة وبلوغ الانحطاط والعيش في الحضيض والنحس والتشاؤم، وكل ما يرمز إلى المهانة والتحقير، وكل ما يقضي أيضا على الأحلام الجميلة وعلى تعثر طموحاتها.

إن رفضها الدائم للأنوثة أمرٌ صرّحت به في كل رواياتها، فهي وإن استسلمت لوضعها بعد يأسٍ، تتملص مرة أخرى للاستنجاد بذكورتها المتخيلة، "إذ لم تنفعني أنوثتي في النهاية، كان تنكري الذكوري يفيدني في هكذا مواقف، بنسبة أكثر" [10]، فحتى احتمائها بالأنوثة في بعض المواقف التي تتطلب ذلك، جعلها تفشل في تسيير أمورها وتسويتها، فلبس الفستان لإغراء الشاب المقصود لم يفد بشيء، وكذلك تسريحة الشعر الطويلة التي تميّز النساء الجميلات، لم تجذب نظره. بل تصر

على أن التنكر الذكوري في مثل هذه الحالات هو الحل الوحيد الذي سيجعلها مميزة أمامه، و أنها ستلفت انتباهه بلا مبالاتها لمظهرها ولتسريحة شعرها الغريبة، أو للباسها الذي يشبه بدرجة كبيرة لباس الرجل.

"ما الذي أصاب لويزا والي القوية، التي تستنجد بها صبايا الحي في المواقف الصعبة ؟ ما الذي أصاب (عيشة راجل) كما تحب أغلبهن تلقيبي.." [11]

إن صفة (عيشة راجل) في حد ذاتها مشوهة للأنوثة، فهي ترمز للمرأة التي تتشبه بالرجال من حيث القوة والتسلط والحكم، وقصتها تعود إلى عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام- حيث أطلق الشيعة كارهو عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها- هذه الصفة عليها " فهي عند الشيعة في قرن واحد مع معاوية ، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، ويزيد، وسائر بني أمية، مع أنها ما قتلت صالحا ولا فرضت بيعة على الأمة بالسيف، ولا اقتنت الدور والقصور والغلمان والجواري " [12]، لكن تَزعمَهَا على الجيش وقيادتها له قلبت الموازين وجعلتها منبوذة بعض الشيء، وكثرت عليها الأقاويل رغم أنّها من سيدات نساء العالمين وزوجة حبيب الله وابنة الصديق، باعتبار قول رسول الله " لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة " [13]، ورغم ضعف الحديث وورود بصيغ مختلفة تؤكد بطلانه إلا أنّه حديث شائع ومعمول به.

فالكاتبة تلجأ للتاريخ لتصور بطلة روايتها "مزاج مراهقة" وتصفها بـ: (عيشة راجل)، سندُ كل الفتيات ما دامت تحس بمعاناتهن أمام ظلم الآخر لهن، وهي القادرة على التصدي في كل الحالات.

لذلك كانت فوضاها لا تتوقف، ولذلك كانت تعلن عن فشلها في أن تصبح أنثى وإلى الأبد، فهي لن تستطيع أن تكون كذلك، وهي نفسها تقر بذلك "كنت مشروع أنثى، و لم أصبح أنثى تماما بسبب الظروف..."[14]، فهل ألم فقدان الهوية فظيع، أم أنه أمر بسيط يمكن التعود عليه مع الوقت؟

في كل الأحوال، هي الوحيدة التي تعرف ذلك وهي التي لا تمل من تكرار الفكرة وتأكيدها هذا الأمر، فلا تخلو كل رواياتها الثلاث من عبارات بمثل: "كثيرا ما تمنيت أن أكون صبيا " [15]

" خصوصا لخجلي الدائم من أنوثتي " [16]

" مراهقة مثلي، تعيش في خصام دائم مع أنوثتها " [17]

" وأمقت لأنني أنثى " [18]

" غير الأنوثة المرة، لا شيء كان يرافقني في تلك الشوارع التي لا تمل من تعذيبي " [19]

" ما أتعس أن يكون الفرد عندنا امرأة.." [20]

" كانت رغبتي الأولى أن أكون صبيا..." [21]

نبرة الرفض تبدو واضحة بشكل جيد وحتى لغة يأسها واستسلامها لا تخالف اللغة الأولى كثيرا، تضيف قائلة:

" وحتى حين نواجه أنفسنا لا نجد فرقا...

واجهت نفسي في المرآة، وكأنها شخص آخر...

فتاة ككل أولئك الفتيات المتشابهات، قليلة هي الأشياء التي توحي بأنني أنا.." [22]

فبالنسبة لفضيلة الفاروق كلّ النساء متشابهات، لا يوجد فرق بين المثقفة والأمية، بين ابنة الريف وابنة المدينة، لا يوجد أدنى فرق، ذلك أنَّ المرأة مهانة كيفما كانت، وفي أي زمن تكون فيه.

إن نظرتها التشاؤمية للأنوثة وكرهها لشكل الأنثى، جعلها تتخطى حدود المعقول حيت تقول:

"هنا فقط نصل إلى قبورنا ونصل زحفا بعد أن تلعب بنا حفر الطريق بأجسادنا " [23]

إنّ الوصول إلى مرحلة البلوغ بالنسبة للكاتبة يعني الوصول إلى القبر، يعني النهاية والموت والفناء، وتلك التغييرات والتفصيلات التي تحدث لجسد الفتاة هي حفر طريق تلاعبت بأجسادهن؟ بأي حق توصف الأنوثة هكذا؟ وأيّ ذنب ارتكبته الأنوثة، في حق هذه الرافضة وفي حق الكثير من الرافضات أمثالها، لوضعهن ؟

ومهما كان الإثم كبيرا، فعقابها لن يكون لهذا الحد، وكرهها لن يبلغ هذه الدرجات من الحقد والبغض.

أم "لأنها امرأة والمرأة كما قال غي دي كار تعشق السرد لأنها تقاوم به صمت الوحدة" [24]، فهي تسرد ولكن لا تتحدث، ولا تفرغ ما في جعبتها كي تتخلص من أحقادها وتتخلص من آلامها، وربما هي تعاني في صمت أيضا، لأنها تخطئ في حق أنوثتها فتلجأ للسرد لتتخلص من أوجاعها، لكنّها بهذه الطريقة تزيد من أوجاعها، وتؤكد حقدها لنفسها ولجنسها ولهويتها.

فهي برفضها لجنسها تصنع مهانة نفسها وليست أنوثتها من تفعل ذلك، وهي برفضها لشكلها تشوه نعومتها وليس اتساخ قدميها هو سبب التشويه أو ضياع الحلق أو تمزق الفستان.

إنّها برفضها لذاتها، لشخصها، ولطبيعة وجودها تعمل على طمس هويتها، وقتل كل ما هو جميل في داخلها، وما دامت تتمنى التخلص من هذه الأنوثة التي تتبعها، فإنّها تتمنى التخلص من حياتها كلّها.

فلا هي أنثى، ولا هي كاتبة، ولا هي إنسانة، وحتى الحياة التي تعيشها حواء بحلاوتها ومرارتها بفرحها وحزنها، ببأسها وشقائها، بغنجها ودلالها لم تتمكن هي من تحقيقها، فكيف تفهم الأنوثة وهي لم تتقن دور الأنثى و لم تفهم أن تكون بطلة أنوثة متميزة في مشروع حياتها .

تقول: " كنت مشروع أنثى، و لم أصبح تماما بسبب الظروف...

كنت مشروع كاتبة و لم أصبح كذلك، إلا حين خسرت الإنسانة إلى الأبد...

كنت مشروع حياة و لم أحقق من ذلك المشروع سوى عشره... " [25]

تقول (كنتُ)، ما يعني أنّ هذا الفعل كان في السابق قبل زمن بعيد، لتضيف بعدها كلمة (مشروع) وكأنّها خُيِرت بين مشروعين أو أكثر، فكان حظها السيئ أن أوقعها في مشروع الأنثى الذي فشلت فيه بامتياز بسبب ظروف لا تعرفها، رغم أنّها من صنعت تلك الظروف كي تتخلص من أنوثتها أو كي توهم نفسها بأنّها قد تخلصت منها.

كنت مشروع كاتبة، والكتابة مشروع إنساني وهدف نبيل وسامي، فكيف لها بخسارة الإنسانية بسبب هذا المشروع، ولماذا تتخلى عن إنسانيتها إلى الأبد وهي بداية مشروع إنساني لا غير؟

كنت مشروع حياة...، كيف ذلك وكلنا مشاريع للحياة، وليست الحياة مشروعنا؟

ورغم ذلك فإن صمودها أمام خسارتها لهويتها وتخليها عن إنسانيتها لم يسمح لغطرستها في أن تجعل من الحياة لعبتها، فهي مشروع حياة وبالطبع كيفما تحب هي أن تكون هذه الحياة.

فاعترافها في كونها لم تحقق غير عشر مشروعها الأخير، لدليل قاطع على أنّها خسرت الباقي بخسارتها لهويتها، لجنسها، لأنوثتها، ولإنسانيتها فلا حياة بدون إنسانية، ولا إنسانية بدون تحديد الجنس، ولا جنس بدون أنوثة ورفض الأنوثة هو بالضرورة رفضٌ للحياة وتعدي عليها.

وهي لن تكون أنثى لأنها ترفض ذلك، ولن تكون ذكرا لأن الله لم يجعلها كذلك، ولكنها ستظل الصبي المشوه الذي يأبى أنوثته.

فلماذا هي كذلك أ لأنّها أنثى تملأها العقد ، أم لأنها ملأت نفسها بأوهام وخيالات لا يمكنها التحقق، أم لأنّها سبحت عكس التيار واشتهت الطريق الخطأ، وربما لأنّها تسعى لتجسيد أنوثتها بعيون عوجاء فعاقبتها هذه الأخيرة بخذلانها مرات ومرات.

فالعقد التي كانت تملأها، جعلتها تتوهم أنّها مسكونة بعفريت يساعدها على أن تكون مثل صبيان العائلة أو صبيان الحي ومختلفة عن باقي بنات العائلة، فالمهم عندها أن تكون متميزة فهي وإن لم تكن تعتبر الأنوثة تمييزا لها فقد اختارت أمرا آخرا، تقول: "إن سيدي إبراهيم كتب حجابا لينجح الذكور وكتابا آخرا ليجعل من الإناث ربات بيوت، أما أنا فيسكنني عفريت...لهذا اختلفت عن الأخريات" [26]

فرغم ذكائها ونجاحها، إلا أنّها لا تختلف عن الأنثى في أمور تعبث بمخيلتها وتصور لها أنّها على صواب، فهي تؤمن أنّ العفريت الذي يسكنها هو ما يجعلها متمردة ورافضة على عكس بقية بنات العائلة، وهو ما جعلها تعيش في صراع دائم مع أهل البيت، لكنها تتحداهم وتعلن التحدي وتخاطر بكل ما يمكن أن تفقده من أجل أن تكسر قراراتهم المعلنة ضدها، تقول:

" بدا الخوف على ملامح أمي وقالت عيناها أكثر ممّا قالته،

ضاع الكلام منها وبحثت أصابعها على موضع القلب لتهدئته:

يا ابنتي سيكسرك رجال العائلة...

سأرى من سينكسر أنا أم هم ..." [27]

إنّ صورة الأم في هذا المقطع الروائي، تعني من دون شك صورة المرأة الخائفة القلقة على مصير ابنتها القابعة تحت سلطة رجل قادر على فعل أي شيء من أجل ردع ومنع ما يمكن أن يلحق به وبسمتعه ضررا، وإن لم يكن هذا الضرر بالأمر الكبير الذي يجب أن تحدث من أجله كل هذه البلبلة والفوضى، لكنها كانت عكس والدتها تماما، فكل من كلامها، ردود أفعالها، ومواقفها ، جميعها كانت عكس شعور والدتها التي توقعتها أضعف من ذلك.

فنبرة الأم كانت تحمل بعضاً من الخوف واليأس والضياع، في حين أنّ نبرتها كانت تحمل أمورا معاكسة، وهو الأمر الذي جعل والداتها تخاف أكثر، فتفكيرها ذهب حد كسر رجال العائلة قبل أن يكسروها، وهي التي تعي جيدًا ما المقصود بكسرها، لذلك ستكون السباقة لفعل ذلك.

إنّها تبحث عن ذاتها بين ذواتهم، وعن حريتها في مقابل نزعها الحصار المفروض من طرفهم، وأحيانا تهمّ بالبحث عن المساواة المقررة في عرفهم أو في عاداتهم وتقاليدهم أو في دينهم المصطنع الذي يوازي بين الرجل والمرأة. رغم يقينها بأنّ لا مساواة مقررة بين الرجل والمرأة لا في أعرافهم، ولا في دينهم الذي عمدُّوا إلى وضع تشريعاته كما راق لهم ذلك، لكنها بجرأتها وتمردها ستحاول أن تصنع بنفسها هذه المساواة أو أن تحقق جزءا منها، لذلك فهي ستفعل أيَّ شيء لتزعزع راحة بالهم وتسرق سكينتهم وهدوئهم فهي ابنتهم قبل أي شيء، لذلك هي تعرف بشكل جيد نقاط ضعفهم، فتعمد لاستغلالها لصالحها ولتنفيذ هدفها قبل أن ينفذوا هدفهم اتجاهها، فتكون السباقة لكسرهم قبل أن يكسروها .

ظل الصمت يلازم الأنثى في كل ما يخصها، في طفولتها، في حياءها، في صوتها، وحتى في قرار زواجها... لذلك كان الصمت عادةُ النساء، ولا يمكن تقرير إن كانت هذه العادة سيئة أم حسنة، لأنّ هناك من النساء من تعتز به وتفخر بذلك، ومنهن من تمقته.

تقول : "سكتت يمينة الصغيرة كان يجب أن تسكت هي الأخرى بشكل ما وأن تتعلم لغة الصمت منذ الآن، إنها عادة متوراثة لدينا " [28]، لكنّها لم تقم بإسكات جميع شخوصها ؟ أليست هي نفسها أنثى مثلها مثل يمينة، والعادة عادة متوارثة عند كل أنثى؟.

يمينة الصغيرة سكتت، سكوت يمينة لا يعني بالضرورة تفهمها للأمر أو خضوعها المفروض رغما عنها للواقع المرّ الذي تعيشه، لأنها أشارت إلى سن يمينة في بداية قصتها، يمينة لم تتجاوز السادسة من عمرها، ما يعني أنّها في مرحلة صغيرة من العمر تتقبل فيها أوضاعها مهما كانت، لأنّها لا تعرف معنى الرفض بعد، وهي كباقي الإناث في ذلك الوقت الرهيب من عمر الجزائر، كان لا بد لها أن تتأقلم في كل الظروف وبكل الحالات.

سكتت يمينة الصغيرة، لكن شخصية أخرى من شخوص رواياتها الثلاث لم تسكت و لم تتقبل الظروف التي فرضتها عليها الحياة، فلماذا لم تسكت " لويزا" بطلة مزاج مراهقة عن ظلم أعمامها، ورفعت شعار التحدي لأجل أن تقهر الأوضاع التي آلت إليها بعد أن صارت مهددة من طرف الجماعات الإرهابية، كما تقول:

" لن أقبل هذه الأوضاع،

ولن أستسلم،

سأرفع شعار التحدي..." [29]

ولماذا لم تسكت بطلة تاء الخجل عن أوضاعها ، بل ووصل بها التفكير حد كسر العائلة قبل أن يقوموا هم بكسرها، كما ظلت تقول: " سأكسرهم قبل أن يكسروني..." [30]

أما بطلة اكتشاف الشهوة "باني" فإنها تمردت على الدين وعلى كل الأعراف كي تتحرر من ظلم والدها وأخيها، ومن ظلم كل الرجال. تقول: "" لم أكن مجرد أنثى عادية، لذلك لم أسكت عن الأشياء التي لا تروقني...

لطالما شكلت عبئا ثقيلا على عائلتي برفضي المتكرر لكل تلك الأشياء.." [31]

فلماذا لم تسكت أيَّ واحدة منهن مثلما سكتت يمينة عن ظلم كل البشر لها، أم أنّها تحاول أن تكون الوجه الآخر للأنثى وأن تثبت مدى صحة الأسطورة، ولتبين أنّ الأنثى ليست حواء وفقط. بل الأنثى هي حواء المسالمة وهي أيضا ليليت المتمردة والرافضة لكل القوانين، فهي ليليت التي رفضت أن يكون آدم هو الأقوى والمسير والعارف بكل الأمور ما دامت قد خلقت من نفس الطين الذي خلق منه ، فكانت لا تختلف عنه في شيء، وهي أيضا حواء التي أعطته القيادة بمجمل حريتها لأنّ ما يهمها هو أن تسعده وأن تكون له الزوجة المطيعة وما دامت قد خلقت من ضلعه فهي جزء منه، ولن يكون لها كيان أو وجود إلا بوجوده هو... "إن الأنثى هي حواء وليليت على حد سواء، كل منهما تمثل صورة مختلفة عن الأخرى كلاهما تشكل المعنى الحقيقي للأنثى [32]

فهي تريد حقا أن تجسد صورة ليليت الرافضة المتمردة في شخصها كي تتميز عن البقية، لأن الهدف من كل هذا هو تميزّها، ثم إن سكوت يمينة هو سكوت حواء وضعفها هو ضعف حواء لا غير.

وإن كان لا بد من أن تختار واحدة فهي تفضل أن تكون الأنثى المتمردة والمتميزة برفضها، المثيرة للمتاعب، والمسببة للمشاكل بالنسبة للآخر.

خاتمة:

إن عدم رضا الكاتبة فضيلة الفاروق بالواقع المفروض جعلها تبحث عن واقع جديد، لأنّ أفق انتظارها يستدعي منها أن تتهيأ لتكون أكثر ذكاء وقوة وصلابة وعزيمة في واقع جديد. لذلك كان الهدف من كتاباتها هو تحقيق مبدأ الاعتراف بمكانة الأنثى في المجتمع الإنساني، إلا أنَّ القارئ يبقى هو الحاكم الوحيد، إمَّا ليحصر هذه الأنثى في محيطها الجغرافي الضيق والزماني الذي نشأت فيه ومن خلاله، أو أن يحررها ويجعلها تقرر مصيرها بعيدا عن سلطة الدين التي ظلت تحجبها بسبب وبدونه، وعن سلطة الرجل الذي ظلّت تنظر إليها كونها جسدا لإفراغ الشهوة ووعاء لاستمرار النسل، وعن سلطة السياسة التي ظلّت تهمشها وتبعدها عن كل منصب قد يكون أحق لها من عديد متوليه ومتقلديه.

فإذا راحت الكاتبة تُنقص من أنوثة بطلاتها حتى شوهت صورهن في مخيلة القارئ / المتلقي، فذلك لأنّ ما تتعرض له المرأة في المجتمعات العربية من ظلم واستبداد وقمع وتحريم، أكبر بكثير مما قد يتعرض له الرجل في نفس المجتمع وبنفس القوانين والأحكام، لذلك جاءت إشكالية الأنوثة محكية بعيون عوجاء.

ويبدو جلياً من خلال الاطلاع على روايات الكاتبة فضيلة الفاروق، حكيها الممنوع وخوضها الحديث عن المسكوت عنه، وخرقها الطابوهات بطريقة ملفتة للانتباه، فلقد حملت الكاتبة على عاتقها مهمة حكي الممنوع وكتابته، وكان الهدف من وراء ذلك هو نقد المجتمع وكشف الزيف الذي يغمره.

كما كانت قضية المرأة ومحاولة مساعدتها على التحرر من بيئة تقهرها ومجتمع يمارس عليها أشد أنواع العنف والتحقير، هي أهم قضية تناولتها الكاتبة في كل أعمالها الروائية الثلاثة التي خصصناها بالدراسة، حيث أنّها سعت جاهدة لتخليصها من كل ذلك من خلال انتصار بطلاتها ووصولهن إلى مساعيهن في نهاية المطاف، ولو بطرق غريبة ومخالفة للأطر المفروضة.

قائمة الهوامش

[1] - رجاء بن سلامة: نقد الثوابت، آراء في العنف والتمييز والمصادرة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط 2 ، 2011، ص 05.

[2] - نوال السعداوي : الوجه العاري للمرأة العربية، محمل عن موقع : WWW.KOTOBARABIA.COM، ص:03.

[3] - هانس يوآخيم ماس: عقدة ليليت، ترجمة: الدكتور سامر جميل رضوان، منشورات النور، طرابلس، لبنان، 1991م، ص:07

[4] - ليليت: كلمة عبرية تعني في اللغة العربية العتمة والظلام والسواد، هكذا عُرفت عند العرب وأطلقوا عليها أيضا اسم جنية الليل المجنحة ، وهي في جميع الحضارات القديمة (البابلية، الفرعونية، الإغريقية، الهندية..) آلهة غاوية وقاتلة أطفال.حيث تقول الأسطورة إنّ ليليت هي الأفعى التي أغوت حواء بأكل التفاحة لأن آدم قد خانها بعد أن تركها واهتم بحواء التي نزلت من جنبه... ويشير في هذا الصدد الدكتور سامر جميل رضوان في المرجع السابق الذكر إلى أنّ :"..ليليت ظلت مرتبطة بصورة الأفعى عند العرب، وذلك لتقديسهم حواء التي اعتبروها أم البشرية جمعاء و لم يذكروا ليليت رغم أنها تمثل النصف الآخر من شخصية أي أنثى، وذلك لأنهم نبذوا فيها رفضها لأنوثتها " ص : 10-11 ،التي تمردت عنها وبحثت لها عن شخصية جديدة لا تشبه شخصيتها الحقيقية .

[5] - فضيلة الفاروق: مزاج مراهقة، دار الفارابي للنشر، بيروت، لبنان، ط 2، 2007م، ص: 12.

[6] - فضيلة الفاروق: اكتشاف الشهوة، دار الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 2005م، ص:15/14.

[7] - فضيلة الفاروق: اكتشاف الشهوة، ص: 15

[8] - المصدر نفسه، ص: 16

[9] - فريدريك كهن : حياتنا الجنسية مشاكلها وحلولها، ترجمة: الصيدلي انطوان فيلو، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ط 19 ، 1982م،ى ص : 58.

[10] - فضيلة الفاروق: مزاج مراهقة، ص: 105

[11] - فضيلة الفاروق: مزاج مراهقة، ص: 33

[12] - خديجة صبار: المرأة بين الميثولوجيا والحداثة، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1999م، ص: 137/ 138

[13] - رواه بن أبي شيبة، نقلا عن : خديجة صبار: المرأة بين الميثولوجيا والحداثة، مرجع سابق، ص: 138

[14] - فضيلة الفاروق: تاء الخجل، دار الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، 2002م، ص: 19.

[15] - فضيلة الفاروق: تاء الخجل، ص: 22

[16] - فضيلة الفاروق: مزاج مراهقة، ص: 26

[17] - المصدر نفسه، ص: 120

[18] - فضيلة الفاروق: اكتشاف الشهوة، ص: 38

[19] - المصدر نفسه، ص: 44

[20] - فضيلة الفاروق: مزاج مراهقة، ص: 12

[21] - فضيلة الفاروق: اكتشاف الشهوة، ص: 14

[22] - فضيلة الفاروق: مزاج مراهقة، ص: 33

[23] - فضيلة الفاروق: مزاج مراهقة، ص: 18

[24] - فضيلة الفاروق: تاء الخجل، ص: 13

[25] - فضيلة الفاروق: تاء الخجل، ص: 15

[26] - فضيلة الفاروق: تاء الخجل، ص: 19

[27] - المصدر نفسه، ص: 21/ 22

[28] - فضيلة الفاروق: تاء الخجل، ص: 28

[29] - فضيلة الفاروق: مزاج مراهقة، ص: 174

[30] - فضيلة الفاروق: تاء الخجل، ص: 28

[31] - فضيلة الفاروق: اكتشاف الشهوة، ص : 19.

[32] - هانس يوآخيم ماس: عقدة ليليت، ترجمة: الدكتور سامر جميل رضوان، ص:11